الفصل الحادي عشر

نتائج وأفكار جديدة حول الكذب وكشفه

لقد كتبت هذا الفصل بمناسبة إصدار الطبعة الثالثة من كتاب (**الأكاذيب**)، ووصفت فيه موادّ جديدة غير موجودة في الطبعة الأمريكية الأخيرة في 1992. أولاً، أصف فيه الاختلافات بين الكذب والصور الأخرى من المعلومات غير الصحيحة، ثم أناقش الدوافع التي تؤدي بالشخص إلى الكذب. وأخيراً أناقش الأسباب الكثيرة التي قد تفسّر فشل الأشخاص في الكشف عن الكاذبين. وسأقدم في هذا القسم نتيجتين جديدتين:

1. نحن الآن أكثر نجاحاً في تحديد الكذب من تعابير الوجه مقارنة بما ذكرته في الفصول السابقة.
2. وجدنا مجموعات احترافيّة أخرى دقيقة بقدر دقة الخدمات الاستخبارية الأمريكية في اكتشاف الكاذبين من السلوك.*

* أنا ممتن لهيلين كرونين من جامعة لندن للاقتصاد لسؤالها الذي يستفسر عن سبب عدم إعداد التطور لنا كي نصبح مكتشفي كذب أفضل، وكذلك لمارك فرانك من جامعة روتغيرز وريتشاد شوستر من جامعة حيفا لتعليقاتهم الداعمة لهذه المخطوطة.

obeikandl.com

اختلافات جديدة

يعـرف بوك[1] الإخفاء المتعمد **بالسّرّيّة**، وأعتقـد أنّ ذلك يصعب الأمور؛ لأنّ الإشعار المسبـق هو الأساس في تمييـز السرية من الأكاذيب المخفية، وساحتفـظ بمصطلح سرّيّة للحالة التي يُعطى فيها إشعارٌ مسبق حيال النّيّة بعدم الإفصاح عن معلومات ما.

فعندمـا نصف شيئـاً ما بالسريّـة، فإننا نعلن عـن حقنا بعدم الإفصـاح، والاحتفاظ بالخصوصيـة. قـد يحتفـظ الشخص بأسـراره الخاصّة، أو قـد يحتفظ شخصـان أو أكثر بمعلومـات يرونها سرّاً خاصّاً بهما، فـإذا سألتُ ابنتي: ألديك صديق؟ فقد ترد علي بقولها: هذا سرّ خاصّ، فإنْ كان لديها صديق فعلاً، فقد تكون عندها قد أخفت الموضوع عني، ولكن لأنها تعترف بذلك، فهذا ما أدعوه سِرّاً. لنفترض أنني لم أسألها عن ذلك، ولكنها تعلم نِيَّتي من محادثات سابقة؛ فإذا لم يكن لديها صديق ولكنها لم تخبرني، فهي تخفي الحقيقة عني وهـذا ليـس سِرّاً؛ لأنها لم تعترف بحقّهـا في إخفاء الحقيقة، وهذه ليسـت أكذوبة؛ لأنها لم توافق على أنّ هناك التزاماً بإعلامي عن علاقاتها العاطفية.

لا يُعـدُّ **عـدمُ الوفاء** بالوعد كذبـاً؛ فقبل تسلُّم الرئيس كلينتـون منصبه بأسبوع، اتهمه صحفـي إنه قد نقض الوعد الذي قطعه على نفسه خلال حملته الانتخابية بشأن المهاجرين من هاييتي، في حين إنه يتبنى الآن موقف الرئيس السابق بوش، وهي سياسة كان قد انتقدها خـلال حملته الانتخابية، وبوجود دليل على الغضب، دافـع كلينتون عن نفسه قائلاً: «سيظنّ الشعب الأمريكي أنني أحمق إن لم أغيّر سياساتي عند تغيّر الظروف». من وجهة نظري، يُعدُّ كلينتـون كاذبـاً إذا عرف أنه في الوقت الذي انتقد فيه بوش كان ينوي اتباع السياسة ذاتها بنفسـه. لنفكر بالتهمة عندما رفع الرئيس بوش الضرائب عند اقتراب انتهاء مدّة رئاسته، عندها يجب عدّه كاذباً. وبالتأكيد، فقد كان وعد في حملته بعدم رفع الضرائب، ولكن يمكن أن يكون كاذباً إن أمكن إثبات أنّ نيّته عدم الوفاء بما تعهّد به عندما وعد بذلك.

إنّ **فشـل التّذكّـر** ليـس أكذوبة، مع أنّ الكاذبين يحاولون عـادة تسويغ أكاذيبهم إذا ما اكتُشفت بالادعاء بالنسيان. ليس أمراً خارجاً عن المألوف أن ينسى الشخص أفعالاً سيندم

عليها، ولكن إن حدث النسيان فعلاً، فعلينا ألّا نسمّي ذلك كذباً؛ لأنّه لا خيار بذلك. ولن يكون ممكناً تحديد ما إذا كان فشل التذكر حقيقيّاً، أو ما إذا كان اللجوء إليه بحدّ ذاته كذبة.

فإذا قدّم أحدهم تفسيراً غير صحيح لما حدث فعلاً، فذلك لا يعني بالضرورة أنّ الشخص أراد التضليل، وإن لم تكن هناك نيّة متعمدة للتضليل، فلا تعدّ العبارة غير الصحيحة كذبة. لماذا يجب أن يكون ما نعدّه كذباً مهمّاً؟ الأمر ببساطة موضوع معانٍ أو تعريفات؛ فإذا كان الشخص غير كاذب، وإذا اعتقد أنه غير مشترك في الخداع، في الوقت الذي يقوم فيه بالكذب، عندها أتوقع أن يكون سلوكه صادقاً. ينبغي ألّا تكون هناك قرائن سلوكية تفيد أنّ التفسير غير صحيح إذا كان الشخص الذي يقدم التفسير لا يعتقد أنه يكذب في أثناء تفسيره. لا أملك دليلاً على هذا التنبؤ، ولكنه يتوافق مع نظريتي العامة بشأن وقت كشف السلوك للكذب. وتدعم الأدلة الأخرى[2] ذلك التفسير؛ إذ إنّ هناك بضع طرائق يقدم فيها الأشخاص معلومات خطأ وهم يعتقدون أنها صحيحة.

يسيء الأشخاص تفسير الأحداث، وخصوصاً معنى تصرفات الآخرين والدوافع التي تجعلهم يتصرفون بهذه الطريقة أو تلك. إنّ حقيقة أنّ أحدهم يفسّر الأمور بطريقة تنعكس بصورة جيدة عليها، بطريقة تسمح لها بالاشتراك في التصرفات التي تجدها مرغوبة، لا تعني بالضرورة أنها تكذب بدلاً من أنّها تخطىء التفسير. لا أرى أنّ هذا التفسير بالضرورة حالة خداع الذات، فليست كلّ حالات عدم الفهم أو إساءة التفسير هي من حالات خداع الذات.

لنفكر في مغتصب يدّعي أنّ ضحيته راغبة في ممارسة الجنس معه، ومع أنّ المغتصبين يعلمون أنّ ضحاياهم ليسوا كذلك، فإنّهم يدّعون ذلك دائماً، ويكذبون لتجنب العقاب. لكنّ الادّعاء بحدّ ذاته لا يعلمنا أنه غير صحيح. حتى لو كان مستبعداً، فمن الممكن أن يكون صحيحاً لنفترض مثلاً أنه كان اغتصاباً بعد مواعدة، وأنّ الضحية كانت خجولة أو خائفة، واعترضت على ذلك مرة واحدة فقط، وبغير ممانعة، ثم توقفت عن المقاومة.

قد يسيء المغتصب تفسير المقاومة المبدئية، ويفسّر لاحقاً عدم المقاومة والسكوت علامة القبول والموافقة. فهل سيكون ذلك المغتصب ضحية خداع الذات؟ باعتقادي لا،

إلّا إذا كان مـن المؤكـد أنه لم يكن يدرك أنّ سوء تفسيره لسلوك ضحيته قد تعزز من خلال رغبتـه في إرضاء احتياجاتـه الخاصة. فهل حدث الاغتصاب؟ أعتقـد أنّ الإجابة ينبغي أن تكـون بالإيجاب، علـى الرّغم من اعتقـاد المغتصب عدم حدوث ذلك، وربمـا كان الصدق مـن ناحيته عند ادعائـه أنّ ضحيته راغبة حقيقة. ويكمن أحد الأسباب التي تجعل من يقدم هـذا الادعاء، يبدو صادقـاً في سلوكه، بتصديقـه لادعائه وعدم اعتقـاده أنه يكذب (راجع كروس وساكس[3] لمزيد من النقاش حول هذه المشكلة في سياق انتقادهما استخدام اختبار مِكشاف الكذب في حالات الإساءة الجنسية للأطفال).

لا يعـدّ ذلـك السبب الوحيد الـذي قد يبدو أحدهم بـه صادقاً تماماً، فلـدى الممثلين الطبيعيين القدرة على تقمّص الدور الذي يقومون به، فيصدقون على الفور – لبعض الوقت تقريبـاً – كلّ ما يقولونه، ولأنهم يعتقدون أنهم يقولـون الحقيقة، فإنّ سلوكهم يتوافق تماماً مع ما يدلون به من أقوال.

إنّ إسـاءة التفسير ليست الطريق الوحيد الذي مـن خلاله قد يعتقد الشخص تفسيره الخطـأ صحيحاً، فقد يعلـم الشخص في البداية أنه يكذب، ولكنه بمـرور الوقت قد يصدّق كذبتـه، وبمجـرد اعتقـاده أنّ كذبته تفسير صـادق لما يتضـح فقد يبدو صادقـاً. خذ مثلاً متحرشاً جنسيّاً بطفل، والذي ادعى عند اتهامه للمرة الأولى أنه كان يعانق الطفل فقط، ولم يكن يفعل ما قد يعدّ اغتصاباً، ولا أيّ شيء مما لم يرده الطفل. ومع أنه في البداية كان يعلم أنه يكذب في تفسيره، لكنه بمرور الوقت، وبتكرار كذبته مرات عدّة، قد يصدق، باعتقادي، أنّ إفادته المزيفة صحيحة، ومن الممكن أن يحتفظ في إدراكه بذكرى الحدث الحقيقي من إساءتـه للطفل بعنف، وبالاعتقاد الآخر في أنه عانق طفـلاً، بل قد تُمحى الذكرى الحقيقية بمرور الوقت، ليحلّ مكانها الادعاء الكاذب مؤقتاً، وقد تزول نهائيّاً.

خـذ مثلاً طفلة تكذب متعمدةً، قائلةً: إنّ مدرّستها أسـاءت إليها جنسيّاً، وهي تعلم أنّ ذلـك لم يحـدث مطلقاً، ولنفترض أنّ الطفلة الكاذبـة حفزّتها رغبة في معاقبـة المُدرِّسة لإهانتهـا لهـا في الصف؛ بسبب عـدم تمكنها من الحصول على علامـة جيدة في الاختبار. فـإذا شعـرت الطفلة أنّ من حقهـا الانتقام، فقد تستنتـج أنّ هذا النوع مـن المعلمات ربما تكـون أساءت إليها، أو ربمـا كان في نيّتها الإساءة إليها، وربما تكون قـد أساءت إلى أطفال

آخرين... وهكذا. أعتقد أننا لا نستطيع استبعاد احتمال أنْ تكون الطفلة قد صدّقت حصول الإساءة بمرور الوقت والتكرار والإسهاب. هذه الأمثلة مزعجة لأننا لا نعلم تكرار حدوثها، ولا نعرف ما إذا كان الأطفال أكثر عرضة للاعتداء مقارنة بالكبار لتصديق أنّ الاتهام صحيح، ولا نعلم بوجود ميزات شخصية مرتبطة بهذه الظاهرة أم لا. ولكن، لا توجد طريقة أكيدة حتى الآن لتحديد ما إذا كان الاتهام صحيحاً جزئيّاً، أو أنّه صحيح تماماً. ولدي طريقة سأناقشها لاحقاً لتمييز التفسيرات الخطأ، ولكن ذلك يكون فقط عندما يعرف الشخص الذي يقدم التفسير أنه يعطي تفسيراً زائفاً.

دوافع الكذب

تشير المقابلات التي أجريتها مع الأطفال[4] والبيانات الناتجة من إجابات الكبار على الاستبانات إلى وجود تسعة دوافع مختلفة للكذب، هي:

1. تجنّب العقاب: إنّ هذا هو الدافع الأكثر شيوعاً لدى الصّغار والكبار على حدّ سواء، وقد يكون العقاب على جرم مقصود أو خطأ غير مقصود.
2. الحصول على عائد إيجابيّ لا يمكن الحصول عليه بغير الكذب: وهذا الدافع هو الأكثر شيوعاً لدى الصّغار والكبار على حدّ سواء أيضاً.
3. حماية شخص آخر من العقاب.
4. حماية الذّات من تهديد بالأذى الجسدي: وهذا يختلف عن العقاب؛ إذ إنّ التهديد بالأذى لا يكون على جرم. ومثال ذلك، الطفل الموجود في البيت وحده، ويبلغ الغريب الموجود لدى الباب أنّ والده نائم الآن، وأنّ عليه الحضور لاحقاً.
5. كسب إعجاب الآخرين.
6. الخروج من مأزِق اجتماعي غريب: ومثال ذلك الادعاء بوجود مشكلة مع جليسة الطفل للتهرب من حفلة مملّة، أو إنهاء مكالمة هاتفية بحجة وجود شخص يقرع باب المنزل.

obeikandl.com

7. تجنّب الحرج: فالطفل الذي يدعي أنّ البلل على الكرسي نتج من سكب الماء وليس من تبليل البنطال، فهذا الطفل ليس خائفاً من العقاب بل من الحرج فقط.
8. المحافظة على الخصوصية من غير إعطاء إشعار في نيّة المحافظة على بعض المعلومات الخاصّة.
9. ممارسة السلطة على الآخرين عن طريق التّحكّم في المعلومات التي يحصل عليها المتلقّي.

ولكني لست متأكداً من ملاءمة جميع الأكاذيب بالضرورة أيّاً من هذه الدوافع التسعة، ولكن هذه هي الدوافع التي ظهرت من بيانات المقابلات التي جمعتها. هناك مجموعة متنوعة من الخدع الصغيرة، مثل أكاذيب اللياقة، ورجال السياسة، التي تصنفها بسهولة هذه الدوافع التسعة. واستناداً إلى تعريفي للكذب، فإنّ هذه ليست أكاذيب؛ لأنّ قواعد اللياقة تفترض وجود إشعار مسبق، والحالة الأصعب تشمل الكذبة المطلوبة للمحافظة على حفلة عيد ميلاد مفاجئة، التي ربما يلائمها دافع الخصوصية.

نتائج جديدة

لقد أكّدت في هذا الكتاب مدى صعوبة كشف الكذب عن طريق السّلوك، وتدعم النتائج الحالية، وتتناقض مع وجهة النظر تلك، ففي دراسات أكاذيب سرقة النّقود وأكاذيب الآراء التي وردت سابقاً، نجحنا في تمييز الكاذبين من الصادقين في أكثر من 80% من الحالات التي استخدمت تعابير الوجه فقط، وأتوقع أنّه عند إضافة علامات حركات الجسم والصوت، والحديث سنتمكن من تحديد صحيح بنسبة تفوق 90%. يجب أن يؤخذ بالحسبان أنّ تطبيق هذه المقاييس يأخذ وقتاً طويلاً؛ قد يمتدّ إلى ساعات. وكما سأذكر بعد قليل، ما زلنا نجد أنّ معظم الأشخاص الذين شاهدوا الأشرطة مرة واحدة يحصلون على نتائج تفوق المصادفة في تمييز الكاذب من الصادق.

لقد وجدنا[5] أدلة للقدرة العامة على تمييز الكاذب من الصادق. إنّ دقة الكشف عن كذبة سرقة النقود ارتبطت بدقة الكشف عن الكذب حول الآراء. وأعتقد أنّ الوضع كذلك؛

لأنه عندما تكون الأخطار مرتفعة تكون القرائن السلوكية متشابهة بصرف النظر عمّا تشير إليه الأكذوبة. وبالطبع تتنوع الأكاذيب كذلك بتكرار بعض أنواع القرائن. فعلى سبيل المثال، هناك كثير من القرائن في أكاذيب الرأي حول محتوى الحديث مقارنة بأكذوبة سرقة المال، بيد أنه كلّما كان عدد الكلمات التي يتحدث فيها الشخص أكثر في نوعي الكذب، كان الحكم عليها أكثر دقة. إنّ الذين يجرون المقابلات بصورة موفّقة يعرفون أنّ مهمتهم الرئيسة هي تمكين الشخص الذي يقابلونه من التحدث، وكلما كان الحديث أكثر كان ذلك أفضل. وهذا ما وجدناه فعلاً. ليس السبب في ذلك وجود قرائن أكثر في الكلمات، بل لأنه سيكون هناك قرائن أكثر في علامات الوجه، والجسم، والصوت عندما يتحدث الأشخاص أكثر.

وجدنا أيضاً (فرانك و إيكمان، بيانات غير منشورة) أدلة على أنّ القدرة على تلفيق أكذوبة تتقاطع مع نوع الكذبة. إنّ النجاح في ارتكاب كذبة الرأي ارتبطت بالنجاح في ارتكاب كذبة سرقة النقود.

حدّدنا[6] ثلاث مجموعات مهنية حققت نتائج ليست من قبيل المصادفة كمجموعة التمييز بين الكاذبين والصادقين حول الآراء. شملت أحدها أعضاء من مختلف الوكالات الاتحادية المتطوعين لحلقة عمل مدّة يوم، بحثت في كيفية الكشف عن الكذب من السّلوك، ولم يُلزم أحد منهم بالحضور، بل كان ذلك باختيارهم. بدأتُ حلقة العمل باختبار قدراتهم على كشف الكذب قبل أيّ شيء، كما فعلت مع المجموعات الأخرى، فسجّل الضباط الاتحاديون دقة أكثر من أعضاء مجموعات فرض القانون أو القضاة الاتحاديين. في حين تألفت المجموعة الثانية التي سجّلت مستوى دقة مرتفعاً من أفراد الشرطة من مختلف الدوائر، وقد تطوعوا لحضور دورة مدتها أسبوعان هدفها تدريبهم على إجراء المقابلات. استطاع معظمهم بعد التّدريب، إجراء المقابلات بصورة جيدة، وكانوا أكثر دقة من أعضاء مجموعات فرض القانون. أمّا المجموعة الثالثة، فتكوّنت من الأطباء النفسيين في القطاع الخاص الذين اختاروا التضحية بدخل عمل يومين من أجل أخذ مقرّر الخداع والسلوك. هؤلاء، كانوا أكثر دقة مقارنة مع مجموعة مقارَنة من الذين لم يختاروا حضور هذا المقرّر، ومجموعة أخرى من أكاديميي علم النفس.

لـم تسجل أيّ مـن المجموعات الأربع الدقيقـة، (كالخدمات السريـة التي ورد ذكرها في الفصـل التاسع، والضبـاط الاتحاديين، وعمداء لوس أنجلوس، والأطبـاء النفسيين)، واقعيّـاً مستـوى دقة عنـد أو أقل من المصادفة، بل سجّل أكثر مـن الثلث 80% أو أكثر. وفي المجموعات الأخرى، سجّل أقل من 10% نتائج جيدة، في حين جاءت نتائج كثيرين بمستوى المصادفة أو أقلّ.

وبإعادة النظر في أنـواع الأشخاص الذين تمّت دراسة دقتهم جميعهم؛ علماء النفس، والقضـاة، والمحامين، ورجال الشرطة، والضباط الاتحاديـن، والأطباء النفسيين – وُجد أنّ السّـنّ، ونوع الجنس، والخبرة العلمية، غير مرتبطـة بالدقة، وكان الأشخاص الأكثر دقة أكثر ثقة بقدراتهم من الآخرين، ولكن الثقة الإجمالية ارتبطت ارتباطاً ضعيفاً مع الدقة.

ارتبطت القدرة على رصد تعابير الوجه الدقيقة مع الدقة في تمييز الكذب من الصدق فـي وصف العواطف الصادقـة، سواء تعلق الأمر بسرقة النّقـود ،أم بالآراء في الموضوعات الاجتماعية. وسجلت المجموعات الأكثر دقة نتائج أفضل من غيرها في الكشف عن الكذب، ولـم تختلف كثيراً عـن الأخرى في تمييز الصـدق، مما يؤكد الحاجة إلـى تعليم الأشخاص تحديد الشخص الصادق المشتبه فيه بالكذب.

لماذا لا نستطيع الكشف عن الكاذبين؟

لنبحـث فيما نعرفه عن مـدى قدرة الأشخاص على كشف الكـذب من السلوك بنجاح، يأتي دليل عدم القدرة على كشف الأكاذيب من النمط التالي من التجارب؛ يُستعان بالطلاب ليقومـوا بالكـذب، أو إخبار عن أمر غير مهمٍّ بنظرهم، وليس له علاقة بماضيهم أو حياتهم المستقبلية. ولتحفيزهم، يقال لهم: المهم أن تكون قادراً على الكذب. أو: الأشخاص الأذكياء أو الناجحون هم من ينجحون في هذه المهمة، ثم تعرض الأشرطة التي سجلت سلوكهم على طـلاب آخريـن، ويطلب إليهم تحديد الكاذب والصادق، فيسجـل معظمهم نتائج عن طريق المصادفة أو أكثر بقليل. ولكن بحثنا اختلف بعدد من الطرق عن ذلك.

obeikandl.com

حاولنـا جعل الأكاذيب مرتبطة بالحياة، ورفع مستوى المخاطرة إلى أقصى حدّ ممكن (بالنجاح أو الفشل)؛ لسببين: الأول، لأنّ عاطفة الخوف، والذنب، والابتهاج أو ما أسميته لذة الخداع يُرجّح أن تُستثار وتكشف الكذبة في الأكاذيب مرتفعة الأخطار فقط. لا تعدّ تسريبات هـذه العواطـف القوية فقط ما يقدم قرائن سلوكية على الخـداع، ولكن قد تشوّش العواطف القويـة المعالجـة الإدراكيـة لدى الـكاذب، وتنتـج تفسيرات مراوغـة غير قابلـة للتصديق ومتعثرة. والثاني أنّ هذا الصنف من الأكاذيب له أثر كبير في المجتمع.

في أحد المشاهد التجريبية المذكورة في الفصل الثاني، بحثنا مدى قدرة الممرضات على إخفاء العواطف السلبية التي شعرّن فيها عند مشاهدة أفلام تعرض عمليات بتر وحروق، وقد حُفِّزْنَ بدرجة عالية لضمان نجاح هذه الكذبة. اعتقدتِ الطالبات أنّ التجربة تقدم لهنّ الفرصة لتنمية مهارة في حاجة إليها عند تعرضهنّ لمشاهد مزعجة في وظيفتهنّ مستقبلاً.

حصـل المشاركـون فـي تجارب أخـرى، علـى فرصة الاحتفـاظ بخمسيـن دولاراً إذا استطاعوا إقناع المُستجوِب أنهم لم يأخذوا النقود التي يجري استجوابهم بشأنها، واستطاع مـن لم يأخذ النقود كسـب عشرة دولارات بجعـل المستجوِب يصدق أنه لـم يأخذ خمسين دولاراً. وفـي التجربـة الثالثـة والأخيـرة، حدّدنـا أولاً الموضوعـات الاجتماعيـة التي شعر المشاركـون حيالها بمشاعر قوية، ثم طلبنا إليهم قول رأيهم بصدق، وكسب خمسين دولاراً إذا تم تصديقهم.

وفي أحدث أعمالنا، أتحنا للمشاركين الفرصة بالكذب، أو الصدق، كما يُتاح للأشخاص العاديين في الحياة الواقعية. هناك كثير من الأسباب تجعل بعض الأشخاص يختارون عدم الكـذب؛ وأحدها معرفتهم الخاصة، اعتماداً علـى الخبرة السابقة، بانكشاف كذبهم دائماً. وباشتمال عينة الدراسة على هذا الصنف من الكاذبين؛ أي الذين لا يختارون الكذب إلا إذا أُجبروا على ذلك من قبل الفاحص، قد يزداد معدل الاكتشاف. في البحوث السابقة جميعها لأفـراد العينة، سـواء بحوث الخداع في العلاقـات الشخصية كانت أم فـي مِكشاف الكذب – لـم يتـح لهم الاختيار بيـن أن يكذبوا أو يصدقـوا، واستثناء ذلك دراسـة المِكشاف التي أجراهـا جنتـون داي جلعاد وبن شاخـار المذكورة في الفصل السابـع، والتي استطاعا فيها معرفـة الشرطي الذي غشّ في الامتحان ليتأهل للترقية. وعرف ستيفن وكورمان، وكريزك،

وسنايـدر[7] بطريقة مماثلـة أيّ الطلاب قام بالغش في الاختبـار المفاجئ. سمح برادلي[8] أيضاً للمشاركين الاختيار بين الكذب أو قول الصدق في دراسة المِكشاف.

تكمـن الميـزة الفريدة للتجارب الحديثة فـي أننا أبلغنا المشاركيـن بوجود عقاب ما، وسيكـون العقاب كبيراً إذا حكـم المُستجوِب عليهم أنّهم كاذبـون، وسيكون عقاب الصادق الـذي يحكم عليـه خطأ بالكذب كعقاب الـكاذب الذي يُكتشف كذبه. وعليـه، ولأول مرة في البحـث بشأن الكذب، قد يكون كل مـن الشخص الصادق والكاذب خائفاً من عدم تصديقه إذا كان صادقاً، وخائفاً من الانكشاف إذا كان كاذباً، فإذا كان الكاذب وحده من يخاف من الاتهـام بالكـذب، فإنّ الأمر يصبح سهلاً على مكتشف الكـذب، ولن يكون هناك ارتباط بما يجري في الواقع المَعيش، وإذا لم يخش الكاذب والصادق كلاهما العقاب، فلن يكون هنالك ارتبـاط بين الأكاذيب وعالـم الجرائم الجنائيـة، أو الأمن الوطني، ناهيـك عن الخلافات الزوجية، وخلافات الآباء والأبناء، وغيرها.

وعلى الرغم من إمكان ادعـاء تجاربنا الحديثة امتلاك مصداقية واقعية أكبر مقارنة بالدراسات القديمة، أو مقارنة بأكثر دراسات الخداع الشخصي، أو دراسات المِكشاف، فإنّ النتائـج بشأن كشف الكذب لم تكن مختلفة أكثر. فقد سجل معظم الذين شاهدوا الأشرطة التسجيلية، وأدلوا بأحكامهم، نتائج عند مستوى المصادفة أو أكثر بقليل. لقد اختبرنا حتى الآن آلاف الأشخاص، وبوجود أربعة استثناءات فقط، وهم:

1. أفراد النظام القضائي الجنائي (الشرطة والقضاة والمحامون).
2 و 3. رجـال المخابرات، والمعالجـون النفسيّون، الذين سجّلوا نتائـج فاقت المصادفة بقليل.
4. مجموعة رجال الشرطة الذين اختارتهم أقسامهم بوصفهم خبراء في الاستجواب، حيـث تلقى كلٌّ منهم تدريباً مدّة أسبوع لملاحظـة القرائن السلوكية على الخداع، وسجلوا مستويات مرتفعة في كشف الكذب بشأن الآراء.

وقبل المتابعة للبحث في ضعف الأشخاص بصفتهم مكتشفي كذب، دعونا نبحث في بعض محددات البحث التي قد تكون سبباً للتقليل من أهمية القدرة في كشف الأكاذيب من السلوك.

لـم يكـن للسواد الأعظم من المراقبيـن، الذين ميّزوا الكاذب مـن الصّادق، مصلحة قويـة معرضة للخطر لتحقيق الدقة. فلم تقـدّم لهم رواتب أعلى إن كانوا أكثر دقة، ولم يكن كشف الكاذبين مجزياً ذاتيّاً؛ إذ إنّ معظم هؤلاء الأشخاص لم يعتمدوا على كشف الكاذبين ليعتاشـوا. عولـج هذا المُحـدِّد في دراساتنـا[9]، وأعمـال المجموعات البحثيـة الأخرى[10] التـي بحثت في المحترفيـن المهتمين بالكشف عن الكاذبين، ووجدنـا أنّ مكتب التحقيقات الاتحـاديّ، ووكالة الاستخبـارات المركزية، ووكالة مكافحة الكحـول والمخدرات والأسلحة الناريـة، وأطبـاء الطـب الشرعي النفسـي، ومسؤولي الجمـارك، ورجال الشرطـة، وقضاة المحاكم، ومحامي المحاكم لم يسجلوا نتائج أكبر من المصادفة.

ربمـا تكون الدقة أكبر لـو كان الذين يدلون بالأحكام قادرين علـى توجيه الأسئلة بدلاً مـن أن يكونوا مجرد مراقبين فقـط. لن أستطيع استبعاد هذا الطـرح على الرغم من أنني أشـكّ فـي أنه سبب النتائج. قد تنحـرف متطلبات صياغة الأسئلة عـن القدرة على معالجة المعلومـات المقدمة من الشخص المُسْتجوَب. ولهذا السبـب بعينه، يسأل بعض الأشخاص الأسئلـة في كثير من الاستجوابـات، في حين يراقب آخر استجابات المشتبه فيه فقط، ومن المثير للاهتمام وجود مستجوِبين محترفين يوجّهون الأسئلة في تجاربنا، ثم يحدّدون ما إذا كان الذين يشاهدون الأشرطة أكثر دقة مما وجدنا حتى الآن.

لـم يكـن مراقبونا يعرفون الأشخاص الذين حكموا عليهـم، ويمكن القول: إنّ مثل هذه المعرفـة تساعد علـى توخّي الدقة. بالطبع، هناك كثير من الحـالات التي تُتخذ فيها أحكام عن الكذب من غير معرفة مسبقة بالشخص المُسْتجوَب، وترتبط تجاربنا بتلك الحالات على الأقل، ولكني أشكّ في أنّ المعرفة مفيدة دائماً في الكشف عن الكذب، بيد أنّها يجب أن توفر الأساس لإقصاء السلوك الشخصي مقابل ثمن معيّن.

إنّنا نميل إلى التّورّط في صداقاتنا وعلاقات العمل، وقد تؤدي الرغبة لحفظها بتطوير نوع من التغاضي عن السلوكات التي تنغّصها. إنّ الثقة تجعل الشخص أكثر عرضة للتضليل؛ إذ تقـلّ المستويـات المعتادة من الانتباه، وقد يـؤدي التّورّط في علاقة مـا إلى الثقة بقدرة الشخص على كشف الخداع، وقد تجعل هذه الثقة بحدّ ذاتها الشخص أكثر عرضة للتضليل.

ينبغي أن تكون للألفة فائدة تامة عندما تكون مع الشخص الذي يصعب عدم الثقة به، ولدى الشخص الذي اكتسب معرفة كيفية خيانة العلاقة وزمانها.

عُرض على المراقبين في تجربتنا، مقطع استمر دقائق عدّة من كلّ مقابلة، قبل أن يُطلب إليهم الإدلاء بحكم ما، ولكن قد لا تفيد العينات الأطول زمنا في الكشف عن الكذب. لقد أجرينا دراسة كانت عيناتها المعروضة ضعف المدّة عند غيرها، فلم تتغير الدقة عمّا كانت عليه، إضافة إلى أننا نعرف من المقاييس السلوكية التي طُبِّقت أنّ هناك قرائن على الخداع في العينات قصيرة المدة، ولكننا لا نستبعد هذا المحدِّد؛ فلو أُعطي الأشخاص عينات أطول لمدة ساعة أو ساعتين ليحكموا عليها فقد يتحسّن مستوى الدّقّة لديهم.

وربما يسأل أحد النّقّاد ما إذا كانت الدقة متدنِّية؛ بسبب وجود عدد أقل من القرائن السلوكية على الخداع. ولكن كما ذكرت قبل قليل، ليس الوضع كذلك في تجربتنا. تبين المقاييس التي أجريناها مع المتعاونين معنا لحركات الوجه، والصوت، والحديث أنّ مستويات الدقة المرتفعة ممكنة، وتزيد على ما نسبته 80% من التصنيفات الصحيحة للكاذب والصادق. وفي حين، تتطلب هذه المقاييس إعادة بالسرعة البطيئة، فإننا نعلم أنّ الأحكام الدقيقة ممكنة بمجرد مشاهدة الأشرطة في الوقت الفعلي لها، وقد وصلت الدقة لدى نسبة بسيطة من عينة الدراسة إلى 80% أو تزيد، وقد جاءت النتيجة كذلك في الحكم على أكثر من مشهد؛ لذا، لا يرجح أن تكون الدقة عندهم مصادفة، كما وجدنا بعض المجموعات المهنية دقيقة للغاية بصورة إجماليّة.

لقد كان أفراد الخدمة السرية دقيقين جدّاً فيما يتعلق بكذبة العاطفة؛ فلم يسجّل أيٌّ منهم نتيجة عند مستوى المصادفة أو ما دون، بل سجّل ثُلُثُهُم أكثر من 80%. أظهر المستجوِبون المختارون بعناية لمهاراتهم المعروفة، الذين تدرّبوا مدّة أسبوع، دقّةً مشابهة في كذبة الرأي، وعلى الرّغم من أنّ الأخطار في الأكاذيب التي درسناها مرتفعة مقارنة بالبحوث الأخرى في الكذب، فإنّها ليست بقدر ارتفاع الأخطار في كثير من الحالات الجنائية أو الأمن القومي، وربما لو كانت الأخطار أعلى لاحتوت الأشرطة التسجيلية على كثير من العلاقات الواضحة على الخداع مما يحقّق دقة أكبر. لا أستطيع المجادلة بهذا الاحتمال،

ولكن كما وصفت قبل قليل، كانت هناك بعض المجموعات المهنية الدقيقة لدى حكمها على الأشرطة. ويبقى السؤال: لماذا لم تكن باقي المجموعات دقيقة؟

إنّ المعلومات موجودة أصلاً، ويمكن لبعضهم، وليس كلّهم، اكتشافها، وقبل التفكير بضعف الغالبية العظمى، لنفكر في ميزة أخرى في تجاربنا التي ربما تكون قد أفادت الدقة، وربما تكون قد جعلتنا نفرط في الثقة بالدقة بدلاً من التقليل من شأنها. لقد أَخْبَرْنا المراقبين في دراساتنا جميعها أنّ زُهاء 40% – 60% من الأشخاص الذين سيقابلونهم كاذبون. ولم نقدّم هذه المعلومات في البداية. وجدنا في النتيجة أنّ مجموعة من رجال الشرطة حكمت على أنّ الأشخاص في الشريط كاذبون جميعهم، وفسّروا لاحقاً أنّ الجميع كاذبون، وخصوصاً بالكذب على رجال الشرطة. تعدّ معرفة معدل أساس الأكاذيب فائدة لا يمتلكها الأشخاص دائماً، وينبغي لها أن تزيد من الكشف عن الكذب. وسأناقش ذلك لاحقاً.

صحيح أنّ أدلتنا غير حاسمة، لكنّ الأشرطة تحتوي على قرائن سلوكية على الخداع يستطيع بعضهم ملاحظتها بدقة، ولكنّ الغالبية لا تستطيع تمييزها. ولأغراض النقاش، لنفترض أنّ هذا الدليل يشير إلى أنّ الأغلبية العظمى في الحياة الواقعية لا تستطيع كشف أكاذيب الأخطار المرتفعة من السلوك، فإنّ السؤال المطروح هو: لِمَ لا نستطيع جميعنا أن نكون أفضل من ذلك؟ ليس الأمر أننا غير مهتمين. تظهر استطلاعات الرأي العام على الدّوام أنّ الصدق من بين الخصائص الخمس العليا التي يرغب الأفراد بوجودها في القائد، أو الصديق، أو الحبيب، وأنّ عالم التسلية مليء بالقصص والأفلام والأغاني التي تصف العواقب الوخيمة للخيانة.

إنّ تفسيري الأول لعدم قدرتنا الكشف عن الكذب يعود إلى عدم استعدادنا بالتاريخ التطوري؛ لأن نكون بارعين في الكشف عن الكذب أو ملفّقي الكذب، وأشكّ في أنّ بيئة أسلافنا لم تكن مليئة بالفرص لكي يكذب شخص ويفلت بكذبته، وربما كان ثمن انكشاف الكذبة كبيراً. وإذا كان هذا التّوقّع صحيحاً، فربما لن يكون هناك خيار لهؤلاء الأشخاص الذين كانوا عادة بارعين في الكشف عن الكذب أو تلفيقه. ولا تشير سجلات الحفائر للكثير عن الحياة العامة؛ لذا، على الشخص أن يخمّن مواصفات الحياة البدائية (الصيد والجمع).

أضيـف إلى ذلك خبرتي على مـدى ثلاثين عاماً بالعمل على مـا كان يسمى آنذاك بالعصر الحجري، وثقافة ما قبل عصر الكتابة، بما يسمى الآن بابوا غينيا الجديدة.

كانت البيوت آنذاك، من غير أبواب؛ وقلّت الخصوصية، في هذه القرية الصغيرة، التي عـرف الجميـع فيها بعضهم بعضاً، والتقـوا يوميّاً، وكانت الأكاذيـب تكشف عادة عن طريق المتلقّـي، أو شخص آخر يراقب التحـركات التي تناقض الكذبة، أو بدلائل محسوسة أخرى؛ فالزنـا كان سلـوكاً يحاول الأشخاص إخفاءه في القرية التي سكنوا فيهـا، ولكن سرعان ما يُفتضـح الأمر، ليس من خلال تفسير سلوك الزّاني الذي يدّعي الإخلاص، ولكن بضبطه مع عشيقته في الغابة.

ربمـا أمكن تجنب كشـف الأكاذيب عن المعتقـدات والعواطف والخطـط في مثل تلك البيئـة، ولكـن بعض تلك الأكاذيب تؤدي فـي النهاية لتصرف معين يكشفهـا، ثم إنّ نقاشي يتنـاول صعوبة إخفـاء أو تزوير السلوكات فـي وسط لا خصوصية فيه. وفـي المجتمع الذي يعتمـد فيـه بقاء الشخص على الجهـود التعاونية مع الأعضاء الآخرين فـي قريته، قد يكون تشويـه السُّمعة ذا خطورة قاتلة. فقد يُقاطع الشّخص الذي يُعرف عنه الكذب، وهذا الوضع جدٌّ خطير؛ لأنّنا لا نستطيع تغيير الزوج، أو الوظيفة، أو القرية بسهولة.

يقدم تشيني وسيفـارث[11] في فصل عن خداع الحيوان نِقاطاً متشابهة، ينشأ المحدّد المهم ضد الكذب

> ... مـن بيئـة الكائنـات الاجتماعية. تواجه الحيوانـات التي تقطن في مجموعـات اجتماعية ثابتة مشـكلات فـي أيّ محاولـة للتواصـل المخـادع... ربما يجـب أن تكـون العلامـات المخادعة بين الحيوانات التي تعيش اجتماعيّاً أكثر دقة، وتحدث بترددات منخفضة إذا أُريد لها عدم الانكشاف. وبالأهميـة ذاتهـا، إذا كانـت الحيوانات تعيش في مجموعـات اجتماعية يكون فيهـا بعض التعاون ضروريّـاً للعيش، ويمكـن أن تقلّ الحاجة إلى التعـاون من المعدل الذي تظهر فيـه العلاقات غير الموثوقة.

ليكـون لـدى الشخص مهارة خاصة فـي الكشف عن الكذب (أو ارتـكاب الكذب لذلك الشـأن)، لن تكـون لديه قيمة تكيفية بمثل هذه الظروف، وربما لـم تحدث الأكاذيب الجدّيّة

مرتفعة الخطورة كثيراً؛ بسبب محدودية الفرص والثّمن الباهظ. وعندما كان يُشكّ بالأكاذيب يُكشف عنها. (لاحظ أنني ركزت على الأكاذيب داخل المجموعة، ومن المؤكد أنّ الأكاذيب ممكنة الحدوث بين المجموعات، وقد تكون عواقبها وكشفها مختلفين تماماً).

وفي حين، أنّ هناك أكاذيب إيثارية، فإنّ نقاشي قد بحث في الأكاذيب الأقل ودّيّة، الأكاذيب التي تحدث عندما يكسب شخص ما فائدة على حساب الضحية عادة، وعندما تُكتسب الفائدة من خلال انتهاك قاعدة، أو توقع ما؛ فهذا هو الغِشُّ بعينه. قد تكون الأكاذيب أحياناً مطلوبة لتحقيق الغِشّ، لكنّها مطلوبة دائماً لإخفاء القيام بالغِشّ.

لا يُقَدِّر الغشاشون عادة أن يغُشّوا ولديهم غريزة تدفعهم لكشف الأكاذيب الموجهة ضدهم، ولكن لم يحدث الغشّ كثيراً في بيئة أسلافنا لمنح فائدة ما لأولئك المهرة الذين كانوا غير عاديين في رصد زمن حدوث الغش. وكما ذكرت سابقاً، ربما كان هناك بعض الخصوصية بحيث يُكشف الغِشُّ بوسائل أخرى غير تمييز السلوكات الخطأ. وقد كتب عالِم الأحياء ألان جرافن[12]:

> «يجب أن تكون حادثة الغِشِّ بسيطة بحيث تبقى إشاراتها صادقة إجمالاً. ولأنّ الذين يتواصلون بالإشارات يزيدون من قدرتهم، ينبغي أن تكون الحالات التي يكون فيها الغش مفيداً محدودة. ربما يكون عدد الأشخاص الذين يتواصلون بالإشارات، ويستفيدون من الغِشّ قليلين، أو أنّهم لا يستفيدون إلا في حالات قليلة فقط... إنّ الغِشّ متوقع وفق نظم إشارة متقلبة، ولكن قد يكون النظام ثابتاً فقط إذا وجد تفسير لسبب فشل معظم حالات الغِشّ. يفرض الغِشّ بعض القيود على معنى الإشارة. والحقيقة الأساسية بشأن نظم الإشارة الثابتة هو الصدق. لذا، ينبغي أن يكون تقليل الغِشّ لمعنى الإشارة عند حدّه الأدنى إذا أردنا الحفاظ على الثبات» (ص. 533).

استناداً إلى هذا المنطق، فإنّ إشارات الغشاشين، والتي أسميها أكاذيب، ينبغي أن تكون منخفضة التأثير. تشير نتائج كوسمايدس وتوبي[13] إلى أننا طوّرنا حساسية تجاه قاعدة المخالفات، ونحن لا نكافئ الغشاشين، وقد يفسر هذا سبب عدم حدوث الغِشّ دائماً. وعلى كل حال، تشير النتائج إلى عدم احتمال اكتشاف الغشاشين، استناداً إلى قدرتنا على كشف أكاذيبهم من السلوك، ولكن بوسائل أخرى.

ولتلخيص وجهة النظر هذه، فإنّ بيئة أسلافنا لم تعدّنا لنكون مكتشفي كذب فطنين. وربما كان أولئك المهرة في تحديد الكاذب من السلوك يمتلكون فائدة دنيا في الظروف التي ربما يكون أسلافنا عاشوها، وربما لم تحدث الأكاذيب الخطرة في العادة؛ لأنّ ندرة الخصوصية جعلت فرص الكشف مرتفعة، وهذه الندرة في الخصوصية قد تعني أيضاً أنّ الأكاذيب تُكتشف في العادة بالملاحظة المباشرة، أو الدلائل المحسوسة الأخرى، بدلاً من الاعتماد على تفسير السلوك. وأخيراً، عندما يُكتشف كذب أحدهم في مجتمع تعاوني منغلق وصغير، فإنّ سمعته ستكون في الحضيض، وهذا ثمن باهظ لا مناص منه.

إنّ الوضع في المجتمعات الصناعية الحديثة يمثّل العكس تقريباً؛ إذ تتوافر فرص الكذب، مع وجود الخصوصية بسهولة، فهناك كثير من الأبواب الموصدة. وعند اكتشاف الكذب، ليس شرطاً أن تكون العواقب الاجتماعية كارثية؛ لأنّ الكاذب يستطيع تغيير وظيفته، أو زوجه، أو مكان سكناه. فلا تلحق السُمْعة المدمرة به بالضرورة. وعلى هذا، نعيش الآن في ظروف تشجع على الكذب بدلاً من تثبيطه. إنّ إخفاء الأدلة والسّلوك أكثر سهولة، وأصبحت الحاجة إلى الاعتماد على السلوك للإدلاء بالأحكام أكبر. فضلاً على أنّ تاريخنا التّطوريّ لم يسعفنا في أن نكون أكثر حساسية للأدلة السلوكية ذوات الصلة بالكذب.

وإذا ما سلمنا أن تاريخنا التطوري لم يعدّنا لكشف الكذب من السلوك، فَلِمَ لا نتعلم كيفية القيام بذلك ونحن ننمو ونتطور؟ الاحتمال الأول وهو تفسيري الثاني، يفيد أنّ أهلنا يعلموننا عدم كشف أكاذيبهم. فقد تتطلب خصوصيتهم غالباً تضليل أطفالهم عمّا يقومون به، وعندما يفعلون ذلك، ولماذا يفعلون ذلك. في حين، يُعدّ النشاط الجنسيّ أحد مجالات الأكاذيب الواضحة، فإنّ هناك أنشطة أخرى يحرص الأهل على إخفائها عن أطفالهم.

ويفيد التفسير الثالث أننا نفضل عدم الكشف عن الكاذبين عموماً؛ لأنّ الثقة هي ما يثري الحياة لا المواقف المشبوهة. لا يُعدّ الشّكّ، وكيْل الاتهامات الباطلة غير سارّ للذي يشكّ فقط، ولكنه يقوّض فرصة إنشاء علاقة حميمة في حالات الزواج، أو الصداقات، أو علاقات العمل المستمرة، ولا نستطيع تحمّل تكذيب أحد الأصدقاء، أو طفلنا، أو الزوج، عندما يقول الحقيقة؛ لذا، فإننا نخطئ بتصديق الكاذب. إنّ الثقة في الآخرين ليست مطلوبة فقط، ولكنها تجعل الحياة أسهل للعيش، وما أهمية الكشف عن كاذب يستفيد من

هـذه الثقـة إذا كان المتلقّي لا يعرف عن ذلك مطلقـاً! إنّ المصاب بجنون العظمة هو الذي يحـرم عقله من مثل هذا السلام، وأولئك الذين تتعرضـ حياتهم في الواقع لبعض الأخطار إذا لـم يكونوا متنبهين باستمـرار للخيانة. وبالاتساق مع هذه الصيغـة حصلنا (بيوجنتال، وشينـم، وفرانـك، وإيكمان[14]) علـى أدلة أولية تفيـد أنّ الأطفال المُعتـدَى عليهم، والذين يعيشون في بيئة مؤسسية كانوا أكثر دقة من غيرهم في كشف الأكاذيب من السلوك.

لقد ذكرت حتى الآن ثلاثة أسباب لعدم اكتشاف الكاذبين، هي:

1. عدم إعدادنا من قِبَلِ تاريخنا التطوري.
2. رغبة أسرنا في عدم كشف أكاذيبهم.
3. تفضيلنا الثّقة بالآخرين لا الشّكّ فيهم. أما السبب الرابع، فهو أننا غالباً ما نرغب فـي تضليلنـا، ونحن نتواطأ مع الكذب من غير قصـد؛ لأنّ لدينا مصلحة في عدم معرفة الحقيقة.

فكّـر فـي المثالين الآتييـن من أمثلة العلاقـات الزوجية: قد لا يكون فـي مصلحة الأم التـي لديهـا عدد من الأطفـال الصغار كشف كذبة زوجهـا الذي يخفي خيانتـه، خاصة إذا كانـت علاقته الغرامية عابـرة، ولم يحرمها من احتياجاتها هـي وأطفالها. أيضاً، لا يفضل زيـر النسـاء افتضاح أمر خيانته؛ لذا، لدى كلٍّ منهما فائدة فـي عدم كشف الكذب. ويتضح المنطـق المماثل في فاعلية الكذبـة الإيثارية والاعتقاد المتواطئ فيمـا يأتي: تسأل الزوجة زوجها: «هل كانت هناك امرأة أخرى في الحفلة ترى أنها أكثر جاذبية مني؟» فيكذب الزوج بالادعـاء أنهـا كانت الأكثـر جاذبية، في حين، إنهـا ليست كذلك. فهو لا يريـد لها أن تكون غيورة، وأنه لا يريد التعامل مع وجود تلك المشاعر لديها، وقد تريد هي الاعتقاد بأنها الأكثر جاذبية.

فـي حالة التواطؤ، قد لا يستفيد المتلقّي الذي يريد أن يصدق الكاذب من الكذب، أو قد يستفيد فقط على المدى القصير. لنُعِدِ النظر فيما قد يكون المثال الأكثر قبحاً في هذا القرن لضحية أرادت تصديق كاذب تأبّط له شرّاً في سريرته؛ إنّه الاجتماع الذي ضمّ رئيس الوزراء البريطانـي نيفيـل تشامبرليـن وأدولف هتلر مستشـار ألمانيا في الخامس عشـر من سبتمبر

1938م، المذكـور فـي بداية هـذا الكتاب. لِمَ صـدّق تشامبرلين هتلر؟ في حيـن، لم يصدقه الآخـرون؛ وكان كثيرون في حـزب المعارضة في بريطانيا وأماكن أخـرى يعرفون أنّ هتلر لم يكـن من الرّجال الذين يحترمون كلمتهم. في اعتقادي، تواطـأ تشامبرلين عن غير قصد مع كـذب هتلر؛ لأنه أراد تصديقه. ولو أقـرّ تشامبرلين بكذب هتلر، لكان عليه مواجهة حقيقة أنّ سياسة المهادنة وضعت بلاده في خطر داهم، ولمّا كان عليه مواجهة هذه الحقيقة بعد أسابيع قليلـة، فقد يتساءل المـرء حينها عن السبب الذي جعل تشامبرليـن يفشل في معرفتها خلال اجتماعـه مـع هتلر؛ هذا شأن عقلانـيّ لا نفسيّ. يعمل معظمنا على المبـدأ غير المكتوب؛ إنّه تأجيل الحاجة إلى مواجهة كلّ ما هو غير سارّ. وقد نفعل ذلك بالتغاضي عن أخطاء الكاذب.

لـم يكـن تشامبرلين فريداً في هـذا التّواطؤ، حيث يرغب ضحايـا الأكاذيب، عن غير قصـد فـي كثير مـن الأحيان، في تصديـق الكاذب. ويفسّـر الدافعُ نفسه بعـدم الرغبة في الاعتـراف بالكارثة الوشيكة سببَ إغفال رجل الأعمال الذي عيَّن عن طريق الخطأ مختلساً، وعلامـات الاختلاس بادية عليه، وما زال يتجاهل تلك العلامات: وبعقلانية، كلما كان كشف الاختلاس مبكراً كان ذلك أفضل. ولكن من الناحية النفسية، يعني ذلك الاكتشاف أنّ عليه مواجهـة خطئه لتعيينـه مثل هذا الوغد، وليس فقط ما يترتب على هـذا التّعيين من خسائر لشركتـه. وبالمثل، قد يعرف الجميع ما يحدث باستثنـاء الزّوج المغفَّل، أو قد تقتنع فتاة في سـنّ المراهقـة وتتعاطى المخدرات أنّ والديها يعرفان بالتأكيـد ما تقوم به، في حين يسعى والداهـا عـن غير قصد، إلى تجنـب اكتشاف الأكاذيـب التي قد تجبرهم علـى التعامل مع احتمـال فشلهم بالتربية. إنّهما سيعانيـان صراعاً رهيباً من جرّاء ذلك. على وجه التّقريب، يكـون الشخصـ أفضل حالاً دائماً على المـدى القصير بالتّغاضي عـن الكذبة، حتى لو كان ذلك يعني أنّ العواقب ستكون أسوأ غداً.

كانـت الدوافع التي تؤدي إلى عدم كشف هدف الكذب على الكاذب واضحة في تفسير القبض على الدريتش إيمز بتهمة التجسس في عام 1994م، وهو موظف في وكالة المخابرات المركزيـة. لقـد كان إيمز خـلال السنـوات التسع السابقة يـزوّد الاستخبـارات السوفييتية بمعلومات عن الروس المتعاونين مع وكالة المخابرات المركزية، وأُعدم بعد ذلك عدد منهم. لـم يكـن إيمز شخصاً حذِراً، فقـد كان ينفق المال الذي دفعه لـه السوفييت ببذخ، واشترى

منزلاً وسيارة بثمن يعجز عنه راتبه الوظيفيّ. وقد وصف ساندي غرايمز الوكيل في مكافحة التجسس في وكالة الاستخبارات المركزية، والذي قبض أخيراً على إيمز عمله كما يأتي: إنّ أعظـم انقلاباتك وأروع انتصاراتك هي أسوأ هزائمـك.... عند القبض على جاسوس يعني ذلك بالطبع أنّ لديك مشكلة في الوكالة، لماذا لم تكتشف هذا الشخص مبكراً!

فـي حين، يستند السبب الخامس إلى كتابات إيرفنغ جوفمـان[15]؛ لقد تمت تنشئتنا؛ لنكـون مهذبين فـي تعاملاتنا، وليس لسرقة المعلومات التي لم نُخـوَّل في معرفتها. والمثال الرائع على ذلك، هو كيف أننا نشيح بأنظارنا من غير قصد عندما ينظّف شخص ما أذنه أو أنفـه ونحن نتحدث معه، ويضيف جوفمان أيضاً: قد تكون الرسالة غير الصحيحة في بعض الأحيـان هـي الرسالة الاجتماعية الأكثر أهمية من الحقيقة. إنهـا المعلومات المعترف بها، وهي تلك المعلومات التي يكون الشخص الذي يذكرها على استعداد لتحمل المسؤولية عنها. فعندما تجيب السكرتيرة التي تشعر بالبؤس، بسبب شجار وقع مع زوجها الليلة السابقة : أنا على ما يرام. ردّاً على سؤال رئيسها: كيف أصبحتِ؟ قد تكون تلك الرسالة الكاذبة ذات صلة بتعاملاتها مع رئيسها. فهي تقول له: إنها سوف تقوم بوظيفتها على ما ينبغي.

إنّـه لا يهتـم للرسالة الحقيقية (إنّها بائسة) على الإطـلاق إذا كان هذا لا يعيق أداءها الوظيفي.

لا تبيّن التفسيرات والأسباب التي عرضتها حتى الآن سبب ضعف معظم أعضاء العدالة الجنائيـة ومجموعات المخابرات فـي تحديد الكاذبين عن طريـق سلوكهم، ولا يثق محققو الشرطـة ومكافحة التجسس في المشتبه بهـم. وعليه، فهم لا يتواطؤون بالتضليل، وهم على استعـداد لاستـدراج المعلومات التي لم تُعطَ لهم. إذن، لِـمَ يفشلون في تحديد الكاذبين من تغيـرات سلوكهم؟ أعتقد أنهـم مقيدون بكميات كبيرة من التغذيـة الراجعة غير المشجّعة، حيـث معظم النـاس الذين يتعاملون معهـم يكذبون عليهم. يقـدّر الأشخاص الذين تحدثت إليهـم نسبة الكذب بأكثر من ثلاثة أرباع، وهذه النسبة المرتفعة ليست مثالية لتعلّم الفطنة فـي تفسير القرائن السلوكيـة الدقيقة على الخداع. في كثير مـن الأحيان، ينحصر هدفهم فـي كيفية الحصول على أدلة للإيقاع بالمشتبه به وليس كيفية اكتشاف كذبه. ولكن، عندما

يخطئـون، ويعلمـون أنّ شخصاً ما عُوقب ظلماً، تأتي ردّة الفعل تلك بعد فوات الأوان، وبعيدة كلّ البعد عن الحكم الخائب ليُصوَّب؛ فقد سبق السّيف العَذَل.

يشير هذا إلى أنك إنّ عرّضت المحققين لمعدل أساس منخفض للكذب؛ 50% تقريباً، ومنحتهـم تغذيـة راجعة بعد كلّ حكم يدلون به، قد يتعلمون جيداً كيفية تحديد الكاذب بدقة من السلوك، وهذه تجربة نخطط الآن للقيام بها، ولا أتوقع أن تصل الدقة إلى 100%. ولهذا السبب، لا أعتقد أنّ الأحكام عن الكاذب يجب أن تكون بيّنة دالة في المحكمة. على كلّ حال، توفر هذه الأحكام أساساً أفضل لتحديد من الذي ينبغي إجراء المزيد من التحقيق معه في البدايـة علـى الأقل، ومتى يجب توجيه مزيد من الأسئلة، بسبـب حدوث شيء غير عادي في السلوك.*

* ظهر الكثير من القسم الأول في فصل أول كتبته لكتاب Memory for everyday and Emotional events, ed. N. L. Stein, P. A. Ornstein, B. Tversky, and C. Brainerd (Hillsdale, New Jersey: Lawrence Erlbaum Associates, 1996. ونشر المقطع الأخير في مجلة البحوث الاجتماعية، 17 – 801 :(Fall 1996) (3) 63.

obeikandl.com